تاريخ الفلسفة
73: التجريبية في القرن التاسع عشر،
بقلم الدكتور آرثر هولمز من كلية ويتون

في رحلتنا المشتركة على مدار العام عبر تاريخ الفلسفة الغربية، وتحديدًا أربعة أسابيع تناولنا فيها نحو مئتي عام من التجريبية، وتحديدًا تجريبية القرنين التاسع عشر والعشرين .ولتوضيح الصورة، دعونا نعود إلى هذا الرسم البياني الذي تعرفونه، والذي يُمثل تقاطع التجريبية الحديثة وعقلانية عصر التنوير في توليفة إيمانويل .كانط، والتي انبثق منها تمييز بين منهجين استمرا في الفلسفة حتى يومنا هذا

.كانت العقلانية في عصر التنوير متمركزة بشكل رئيسي في القارة الأوروبية، مع ديكارت، وسبينوزا، وليبنيز ونتج عن ذلك، كما رأينا عند هيغل، التراث الوجودي، إلى حد ما، مع فلاسفة مثل وايتهيد .لكن النتيجة هي .منهج فينومينولوجي يسعى إلى النظر إلى الواقع من خلال عدسة الوعي الذاتي الإنساني

لا تزال المنهجية الظاهراتية، كما رأينا الأسبوع الماضي، تهيمن على الفكر الأوروبي، وتحديدًا الفكر الأوروبي الغربي في القارة .في المقابل، يتركز التراث التجريبي، الذي يضم لوك وبركلي وهيوم، في بريطانيا، واستمر في ،القرن التاسع عشر مع ثلاثة من أبرزهم الذين سنتناولهم بالدراسة :أوغست دي كانط، وجون ستيوارت ميل .وإرنست ماخ .ويُعدّ إرنست ماخ أعظمهم

.لا، تراجع عن كلامك .أعظمهم هو جون ستيوارت ميل .عفواً، آخرهم هو إرنست ماخ

يُعدّ جون ستيوارت ميل الشخصية الأبرز .لكن هذا النهج التجريبي المستمر أدى إلى التركيز على تعميم ،المنهج العلمي ليشمل جميع أنواع المعرفة الإنسانية .أما الآن، فبينما كانت الطريقة التي يُنظر بها إلى العالم .والعدسة التي يُرى من خلالها كل شيء في التراث الأوروبي، هي الروح الإنسانية بحريتها الإبداعية

وأعتقد أن هذا تعميمٌ عادل، سواءً أكان الحديث عن هيغل أو سارتر أو ديوي .من جهة أخرى، فإن العدسة التي ينظر بها التجريبيون في القرن التاسع عشر إلى كل شيء هي ببساطة عدسة الطبيعة كما تُرى من خلال .المنهج العلمي .وهكذا، تتباعد السبل

حتى يومنا هذا، وعلى امتداد القرن العشرين، يمكن القول إن الهيمنة الفلسفية في أوروبا كانت ظاهراتية .بينما كانت الهيمنة الفلسفية في الفلسفة الناطقة بالإنجليزية تجريبية .ورغم أن هذه الهيمنة ربما لم تكن بنفس القدر من النزعة الإمبريالية تجاه المنهج العلمي كما كانت عند ميل في أوائل القرن العشرين، إلا أنها لا تزال .فكرة قوية مفادها ضرورة استخدام معايير علمية لتقييم المعرفة الإنسانية

إذن، هذا هو الفرق .من الواضح أن هناك محاولات لإجراء مقارنات بين الاثنين، لبناء جسور التواصل .ربما ذكرت لكم سابقًا أنه في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، عُقد مؤتمر مشترك بين فلاسفة إنجليز .وفرنسيين

نُشرت وقائع تلك الدراسة في مجلد بعنوان "الفلسفة التحليلية ."وبينما تحاول قراءته، تجد أن الفرنسيين ،يكتبون بالإنجليزية، وهو ما يُفيد الكثيرين منا، والإنجليز يكتبون بالفرنسية، لكنهما يتشابهان إلى حد كبير .لأنهما ببساطة يتناولان مواضيع مختلفة

أو قبل نحو خمس سنوات، كنتُ في مؤتمر في تورنتو، حيث كان هناك فلاسفة أوروبيون، معظمهم هولنديون أكثر من فرنسيين، وأمريكيون من أصل أنجلو-ساكسوني، يتناولون مفهوم العقلانية. نفس التجربة كأننا نمرّ مرور الكرام.

ببساطة لأن المنهجية مختلفة وأنواع التوقعات مختلفة. هذا لا يعني عدم وجود فلاسفة ذوي توجه تحليلي في الفكر الأوروبي، بل هم موجودون.

أو لنقل أنه لا يوجد مفكرون فينومينولوجيا في الفكر الأمريكي. بل يوجد. وتسعى تلك الأقسام الكبيرة إلى وجود ممثل واحد على الأقل.

لدينا واحد. روبرتس. إلا أنه انحرف نوعاً ما إلى التفكير التحليلي.

بفضل عمله على فيتغنشتاين، وكذلك عمله على كيركغارد وبولتمان. إذن، فالوضع قائم. الآن، ما أريد فعله اليوم هو توصيف النزعة التجريبية في القرن التاسع عشر، وقد نضطر إلى مواصلة هذا الموضوع يوم الاثنين، عندما ننتقل إلى القرن العشرين.

يوم الاثنين المقبل، سنتناول بدايات القرن العشرين مع شخصيات مثل برتراند راسل، وجون ستيوارت ميل، وجورج إرنست مور، وجي إي مور. أما بالنسبة لتوصيف القرن التاسع عشر، فلننظر إلى هذه المحاور الثلاثة. امتداد موضوعية عصر التنوير إلى المنهج الاستنباطي الافتراضي، وقد كتبتُه، ربما لتوضيح الأمر أكثر، إلى منهج استنباطي افتراضي.

بمعنى آخر، منهجية قابلة للتطبيق على العلم بروح الموضوعية المستنيرة، رافضةً الثورة الكانطية الكوبرنيكية. الآن، ما المقصود بالمنهج الاستنباطي الفرضي؟ ستجدون أنه مألوفٌ لكم مع مرور الوقت.

لكن فكر التنوير السابق لدى هؤلاء التجريبيين في القرن الثامن عشر كان، بطبيعة الحال، قائماً على مقدمات تُعدّ تعميمات تجريبية، ومنها استُنتجت استنتاجات منطقية. أما إذا كنا نتحدث عن العقلانيين القاريين ، مثل ديكارت وسبينوزا، فإن ما لدينا هو نوع من المقدمات البديهية ، والواضحة، والفطرية، والقبلية، والمنهج الاستنتاجي. بعبارة أخرى، كانت منهجية فكر التنوير تنطلق من المقدمات عبر الاستنتاج إلى النتيجة المنطقية.

إما مقدمات مسبقة أو تجريبية. إن الأفكار الفطرية التي سادت في القرن التاسع عشر وما شابهها موضع شك. ومن الصعب للغاية التحقق من صحة التعميمات التجريبية.

يمكنك دحضها، لكن التحقق منها تجريبياً صعب للغاية ، وتواجه مشكلة الاستقراء. لذا، بدلاً من التعميمات التجريبية أو المقدمات القبلية ، ينصب التركيز على الفرضية كمقدمة. فإذا كانت هذه الفرضية التجريبية صحيحة، فماذا يترتب على ذلك؟ استنتاج فرضي.

إذن، فرضية للمقدمة التي تؤدي إلى الأساليب الاستنتاجية. وهذا أقرب بكثير إلى المنهج العلمي الحقيقي. تذكر أن أحد الانتقادات الموجهة إلى فرانسيس بيكون وأساليبه الاستقرائية كان أنه لم يُفسح مجالاً لاستخدام الفرضيات.

الأساليب التجريبية، ولكن دون فرضيات. هنا نرى نهجًا أكثر نضجًا، يعود إلى القرن التاسع عشر، وهو المنهج الاستنباطي القائم على الفرضيات. وقد أصبح هذا هو فهم المنهج العلمي عند جون ستيوارت ميل، وإرنست ماخ، وبرتراند راسل، وفي الوضعية المنطقية في القرن العشرين.

في الواقع، لم يُكشف عن هذا الأمر تمامًا إلا مع كتاب توماس كون، "بنية الثورات العلمية"، حين أُقرّ بأن العلم يعتمد على النماذج أكثر من الفرضيات .حسنًا؟ لذا ضع هذا في اعتبارك .الآن، ننتقل إلى السمة الثانية.

امتداد هذا المنهج، الاستدلالي الافتراضي، إلى العلوم الإنسانية .سابقًا، كان الاتجاه السائد هو اعتبار العلم مقتصرًا على الفيزياء وعلم الفلك .من هنا بدأ الأمر.

دخلت الكيمياء إلى الساحة، ثم علم الأحياء تدريجياً .لكن الأمر المهم في القرن التاسع عشر كان توسيع نطاق هذه الأساليب لتشمل العلوم الإنسانية.

،أي بمعنى آخر، إلى علم النفس، وعلم الاجتماع، والسياسة .كما سعت المحاولة إلى تطبيقها على الأخلاق لتصبح علماً تجريبياً .وهذا تحديداً ما كان يسعى إليه جون ستيوارت ميل في مذهبه النفعي.

،فإن توسيع نطاق هذا المنهج العلمي ليشمل المعرفة الإنسانية، والعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية ، . يُعرف في بعض الأوساط باسم النزعة العلمية

إنّ العلم وحده هو ما يُنتج المعرفة الموثوقة .العلموية .وبالطبع، سيُصاب أصدقاؤنا في القارة الأوروبية بالذعر إزاء هذا الأمر.

ماذا عن الروح الإنسانية؟ ماذا عن المنهج الظاهراتي وما إلى ذلك؟ في الواقع، قد تفكر في محاولة هوسرل لمعالجة ما أسماه أزمة العلوم في ضوء هذا .إنه يريد تحويل الفلسفة إلى علم دقيق، ولكن ليس بمنهج افتراضي، بل بمبادئ قبلية مستمدة من المنهج الظاهراتي.

،إذن، هذه الأمور لها تبعات .وتبعات هذا التوسع في المنهج العلمي ليشمل نطاقًا عالميًا هي ظهور الظاهراتية ومناهضة الواقعية، ومناهضة الميتافيزيقا .أجل، الظاهراتية، كل ما نعرفه هو الظواهر.

. الأشياء كما تبدو لنا .ما نسميه اليوم باللاواقعية .نحن لا نعرف حقيقة الواقع المطلق كما هي في ذاتها

والنتيجة، لا سيما في القرن التاسع عشر، هي رفض الميتافيزيقا .وأعتقد أن هذا الأمر بالغ الأهمية في ذلك القرن، لأن طبيعة الميتافيزيقا، كما ترى، كانت تُنظر إليها من منظور التمييز بين الظواهر والأشياء الذاتية .بمعنى آخر، كانت تُنظر إليها في ضوء نظرية التمثيل المعرفي، التي تركت الكثير من التساؤلات دون إجابة حول الواقع الذي يُفترض أن تُمثله.

من الملاحظ أن مؤلفات أشخاص مثل برادلي في الميتافيزيقا تحمل عناوين مثل "المظهر والحقيقة ."كان هذا عنوان كتاب برادلي، "المظهر والحقيقة ."والآن، باختصار، ما تفعله الحركة الوضعية هو القول بأن كل ما نعرفه هو المظاهر ، مستبعدةً الحقيقة.

لاحظ ذلك أثناء قراءتك لجون ستيوارت ميل .إذا كنت مهتمًا بمسألة العقل والجسد، فما هو العقل؟ يقول ميل إن العقل ليس سوى إمكانية دائمة للتأملات، أي أفكار التأمل .العقل ليس شيئًا ماديًا.

لا نعرف شيئًا عن حقيقته .ما نعنيه بكلمة "العقل "هو، حسنًا، ما يُفترض أنه مرتبط بتجارب مستقبلية، أي إمكانية التأمل الدائمة .حسنًا، ما المشكلة؟ إمكانية الإحساس الدائمة.

،تقولون :ليس هذا هو المهم، بل المهم هو الظواهر .حسناً، الظواهر، هذا ما هي عليه بالنسبة لنا .وهكذا .تتطور رؤية ظاهراتية شاملة لدى كونت وميل ومارك

برتراند راسل، نعم ولا، بحسب العقد الذي تقرأه من مسيرته .لقد احتفظ بحق الإنسان في تغيير رأيه، ونجح .في ذلك أحيانًا .هذا هو وصفه

والآن، كيف يتجلى هذا في هؤلاء الأفراد؟ حسنًا، أولًا وقبل كل شيء ، توفي أوغست كونت، وهو فرنسي، عام ١٨٥٧ .ستجد فصلًا عن كونت في كتاب ستامبف، وبعض المختارات في مختارات غاردنر .ستجد أن أعمال . كونت سهلة المنال والقراءة

.انتبه لأمرين .الأول هو قانونه المكون من ثلاث مراحل .والآخر هو رأيه حول وحدة العلم

،إن قانون المراحل الثلاث هو صياغته لتعميم تجريبي حول تاريخ العلم .فهو تجريبي، ومهتم بتاريخ العلم .لذا سيقدم لكم تعميمًا تجريبيًا حول تاريخ العلم

.بمعنى آخر، يتطور العلم عبر ثلاث مراحل :من المرحلة الدينية، إلى المرحلة التأملية، ثم إلى المرحلة العلمية .وبطبيعة الحال، تُنتج المرحلة الدينية اللاهوت والأساطير وما إلى ذلك

قصص خيالية ، قصص خيالية من وحي الخيال ، مثل طقوس الملوك الإلهية، التي بسببها فقد تشارلز الأول .رأسه، كما تتذكر .أو التمائم في المذهب الروحاني البدائي .مفاهيم العناية الإلهية

هذه هي مرحلة الطفولة الخيالية للعقل البشري .أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التأمل، حيث يتم التعامل مع .الأفكار المجردة، والمفاهيم، والمفاهيم الميتافيزيقية ، مثل نظريات الكليات والجواهر

أخلاقيات القانون الطبيعي وفقهه .نظريات الحقوق الطبيعية .إن المثل الديمقراطية، مثل كون جميع الناس .يولدون متساوين، ليست تعميمات تجريبية

مفاهيم الغائية، والخيمياء، والتنجيم، والغايات النهائية .كما ترى، كل هذه المفاهيم تنطوي على نظريات .تخمينية حول حقائق خفية .هذه هي مرحلة المراهقة في العقل البشري

.أما المرحلة الثالثة فهي تجريبية وعلمية، وتتناول ما هو معروف بشكل قاطع، وما يمكننا تأكيده بشكل قاطع .ومن هنا جاء مصطلح الوضعية .ما يمكن تأكيده بشكل قاطع

بالتأكيد .هذه هي مرحلة النضج ، مرحلة البلوغ للعقل البشري .وهنا، في المرحلة العلمية، نسعى إلى صياغة .قوانين عامة شاملة

القانون العام الشامل هو تعميم تجريبي يشمل جميع البيانات .قوانين عامة شاملة .وبناءً على هذه القوانين .العامة، أو التعميمات، يمكنك وضع توقعاتك

وبالتالي، يتم تطوير التكنولوجيا للاستفادة من العمليات الطبيعية .إذن، المرحلة الإيجابية هي التي تتطور .إليها العلوم .وهو يحاول الآن تتبع مختلف العلوم بهذه الطريقة

لقد تطورت الأديان إلى المرحلة الميتافيزيقية .فالكثير من اللاهوت هو في جوهره ميتافيزيقا .أما الكيمياء، فقد .تطورت بالطبع من الوثنية البدائية مروراً بالخيمياء وصولاً إلى العلم، أي العلم التجريبي

لكن ما يتوق إليه بشكل خاص هو تطور علم التغيير الاجتماعي .علم التغيير الاجتماعي .فهو في نهاية المطاف .يعيش في النصف الأول من القرن التاسع عشر في فرنسا

وإذا كنتَ مُلِمًّا بالتاريخ الفرنسي، فستعرف أنه كان عصرًا مليئًا بالاضطرابات .لذا، نحن نرغب في علم، علم .تجريبي، للتغيير الاجتماعي .وهذه هي بداية ما أصبح يُعرف اليوم بعلم الاجتماع

يا طلاب العلوم الاجتماعية، إذا تعمقتم في تاريخ علمكم، ستجدون أن هذه هي بدايته .صحيح أن هناك رجلاً آخر، معاصراً تقريباً، أكبر سناً بقليل، مع أوغست كورن، يُدعى سان سيمون .لكن علم الاجتماع بدأ في محاولة .ليكون تجريبياً تماماً

ولم يبدأ علم الاجتماع في دمج بعض عناصر التراث الظاهراتي والاعتراف بالذاتية وما إلى ذلك، بتأثير شخصيات مثل ماكس فيبر، إلا في السنوات الأخيرة، أي خلال عقد أو عقدين من الزمن .أما وحدة العلم فهي .المحور الثاني في فكر أوغست كورن .الأمر في غاية البساطة

.إنها فكرة مفادها أن جميع العلوم تتبع المنهج نفسه أساساً .لا يوجد فرق بين دراسة الطبيعة ودراسة الإنسان

ينبغي أن تسري المنهجية نفسها على كليهما .وتُعدّ أطروحة وحدة العلوم من بين الأفكار التي رسّخها كانط في القرن العشرين، إذ تُشدّد على وحدة العلوم .هذا ما يتناوله ديوي، حيث يحاول تطبيق المنهج العلمي المُطوّر ،في إعادة البناء والفلسفة، مُشيرًا إلى ضرورة تطبيقه على التغيير الاجتماعي، ومعالجة المشكلات الاجتماعية .والسياسة، والتعليم، وما إلى ذلك

،وحدة العلوم .تكمن الاختلافات بين العلوم في اختلافات التعقيد .ففي هذا السياق، يتعين على علم الاجتماع .على سبيل المثال، أن يبني على علم النفس

يجب أن يستند علم النفس إلى علم الأحياء .ويجب أن يستند علم الأحياء إلى الكيمياء .ويجب أن يستند علم .الكيمياء إلى الفيزياء

يعتمد علم الفيزياء على الرياضيات .لذا، يوجد ترتيب هرمي للعلوم من حيث تعقيدها .ومن المثير للاهتمام .أنها تطورت تاريخياً بهذا التسلسل، لتصبح أكثر تعقيداً

حسنًا، هذا ملخصي لأوغست دي كانط .لاحظ، إن كنت تملك مختارات غاردنر، هل أحضرتها معك؟ كان .عليّ أن أنبهك .انظر في الصفحة 151، تعليقاته على ديكارت

كل فيلسوف فرنسي أن يدفع رسومًا لاتحاد ديكارت .وهذه هي رسوم كانط .فبينما كان ديكارت يُقدّم للعالم ،خدمة جليلة تتمثل في تأسيس نظام فلسفي وضعي متكامل، نعم، ما تعلمونه يقينًا، لم يستطع هذا المُصلح بكل طاقته الجريئة، أن يرتقي بنفسه فوق عصره إلى درجة تسمح له بمنح هذا النظام امتدادًا منطقيًا كاملًا من .خلال استيعابه لجزء من علم وظائف الأعضاء الذي يتعلق بالظواهر الفكرية والأخلاقية

يُعنى هذا الفرع من علم وظائف الأعضاء بالظواهر الفكرية والأخلاقية .فبعد أن وضع فرضية ميكانيكية واسعة النطاق استنادًا إلى النظرية الأساسية لأبسط الظواهر وأكثرها شمولية، وسّع نطاق الروح الفلسفية ،نفسها ليشمل مختلف المفاهيم والعلاقات الأولية للكائن الحي .ولكن عندما وصل إلى العواطف والعقل . توقف فجأة، وأسس لهما دراسة خاصة كجزء لا يتجزأ من الفلسفة الميتافيزيقية اللاهوتية

كلمة كهذه لا بد أن تحمل معنىً سيئاً .ولذلك سعى إلى منحها حياةً جديدة بعد أن نجح نجاحاً باهراً في تقويض أسسها العلمية .وفي الصفحة التالية، 152 في الأسفل، ما يسعى إليه، كما ترى، هو النظرية الإيجابية .للوظائف العاطفية والفكرية، وهي كالتالي

يتألف هذا المنهج من الدراسة التجريبية والعقلانية لظواهر الحواس الداخلية، ومفاهيم التأمل الخاصة بالعقد العصبية الدماغية، ووظائف الدماغ، بمعزل عن جميع الأجهزة الخارجية المباشرة .كان من المفترض أن يكون لديه علمٌ للدماغ .لذا فإن ما يسعى إليه واضحٌ تمامًا، وتلاحظ أنه من خلال هذا التوسع في المنهج .العلمي، فإنه يدعو إلى منهجية طبيعية من النوع الذي وجدناه عند جون ديوي

أليس كذلك؟ من النوع الذي تعرفنا عليه في كتابات جون ديوي .أعتقد أن هذا هو السبب الذي دفع أحد أساتذتي إلى تنظيم ندوة ذات مرة، قائلاً إن عقليته، سواءً كانت إيجابية أو عملية، كلها تصب في نفس .المعنى، وكلاهما طريق مسدود .أترى ؟ لأنهما يحصران نفسيهما في حدود العلم التجريبي

.حسنًا .هل لديكم أسئلة؟ تعليقات؟ أعتقد أن الأمر بسيط للغاية، وربما فهمتموه على الفور .حسنًا

جون ستيوارت ميل .أعتقد أنه من الإنصاف القول إن ميل هو الأكثر تجريبية بين جميع التجريبيين .هل .تقصد أكثر من لوك وهيوم؟ نعم

كما ترى، تحدث هيوم عن نوعين من المعرفة .حقائق واقعية، وعلاقات بين الأفكار .علاقات الأفكار هي .حقائق تحليلية، محمولات مضمنة في الموضوع، مثل الرياضيات

يؤكد ميل أن الرياضيات علم تجريبي .فمجموع ثلاثة وخمسة يساوي ثمانية هو تعميم تجريبي لجميع ،مجموعات الأعداد ثلاثة وخمسة .لذا، فإن الحقائق التحليلية هي في الواقع تعميمات تجريبية ، أو إذا شئت .فرضيات تجريبية

إن قوانين الفكر، وعدم التناقض، والهوية، ومساواة أ بـ أ، ونفي ما ليس بـ أ، هي تعميمات تجريبية حول طريقة .تفكيرنا واستخدامنا للغة .بعبارة أخرى، ما يفعله ميل هو اختزال هذه المبادئ الأساسية إلى تعميمات نفسية .تعميمات ، أي، حول كيفية تفكير العقل

وهذا ما قصده هوسرل بالنزعة النفسية ، التي أدانها .فالنزعة النفسية لا تُوفر أساسًا كافيًا للرياضيات، ولا . للمنطق، وما إلى ذلك، كما تتذكر .النزعة النفسية

هذا هو نوع الأمور التي كان هوسرل يناضل ضدها، والتي توقعناها .لكن في هذه الخطوة، يرفض ميل كل المعرفة الحدسية، وكل المعرفة الفطرية، وكل الحقائق البديهية .في الواقع، كُتب جزء كبير من كتاباته في .نظرية المعرفة في عمل ينتقد فلسفة السير ويليام هاميلتون، الذي كان أحد الواقعيين الاسكتلنديين

وكما تعلمون، كان الواقعيون الاسكتلنديون، على نهج توماس ريد، يتحدثون عن حقائق بديهية .حقائق نؤمن بها تلقائيًا بحكم ميول العقل البشري الفطرية التي خلقها الله .وما يفعله ميل، بروح عصر التنوير، هو القول .بأن هذه الحقائق ليست يقينية بما فيه الكفاية، وليست إيجابية بما فيه الكفاية

هذه الحقائق ليست سوى تعميمات تجريبية، أو فرضيات تجريبية إن شئت .والآن، إن القول بأن التعميمات والحقائق البديهية هي في الواقع فرضيات يساعدك على فهم كيف طور ميل المنهج الاستنباطي القائم على .الفرضيات

لكن هذا يساعدك أيضًا على فهم كيف يمكن أن يكون تجريبيًا ويتحدث عن المبادئ التي يقوم عليها الاستدلال باعتبارها تجريبية .فالقياس المنطقي، كما ترى، لا يقتصر على وجود مقدمات فحسب، بل يجب أن تكون له استنتاجات صحيحة، أي روابط تتوافق مع قوانين المنطق .ولكن إذا كانت قوانين المنطق تعميمات تجريبية، والمقدمات تعميمات تجريبية، أو فرضيات إن شئت، فإنك في الواقع أمام قياس منطقي باعتباره تلاعبًا بالمعرفة التجريبية.

بكل بساطة .يُقرّ بأن الاستدلال الاستقرائي يفترض مسبقًا انتظام الطبيعة، ومبدأ الاستقراء، وانتظام الطبيعة. وقد أشار ميل إلى ذلك.

حسناً، وفقاً لميل، فإن تجانس الطبيعة ليس سوى أوسع فرضية تجريبية لدينا .إنها تعميم تجريبي يُعمم على كل شيء .حسناً، هذه هي الفرضية.

وهكذا، فهو إجراء تجريبي بحت .في أعماله في المنطق، كتب ميل الكثير عن المنطق، وصقل أساليب بيكون الاستقرائية .أتذكرون جدول الحضور، وجدول الغياب، وما إلى ذلك؟

لقد صقل تلك الأساليب، وهي في جوهرها نفس الأساليب، ولكن بتعريف أدقّ قليلاً ليُحقق الدقة المطلوبة للمعرفة الإيجابية التي كان يصبو إليها .وهكذا، إذن، هو منهجه ليس فقط في العلوم الطبيعية، بل في علم الطبيعة البشرية أيضاً .وكما ذكرتُ للتو، عندما يسأل عن طبيعة المادة، تكون إجابته بسيطة للغاية، فالمادة، هذا المصطلح، له دلالة تجريبية، ومعناه ببساطة هو إمكانية الإحساس الدائمة.

من وجهة نظر تجريبية، يعني وجود الأجسام المادية إمكانية الإحساس .وبالمثل، يعني وجود العقل إمكانية التفكير الدائم .كما ترى، هو ببساطة يبني على أفكار جون لوك، أفكار بسيطة عن الإحساس وأفكار بسيطة عن التفكير.

لكن برفضه لنظرة لوك إلى حقيقة المادة كجوهر، كركيزة، ورفضه لنظرته إلى حقيقة العقل أو الروح كجوهر غير مادي، ككائن مفكر، فإنه يرفض الخوض في الميتافيزيقا، ويرفض التكهن .لاحظ أن هذا قريب جدًا من ديفيد هيوم، الذي وصف العقل ببساطة بأنه مجموعة من الإدراكات .في الواقع، أعتقد أنه ليس متشككًا تمامًا مثل ديفيد هيوم.

كما ترى، عندما قال هيوم إن كل ما نعرفه عن العقل هو مجموعة الإدراكات، كان يشير إلى إدراكاتنا الحالية، والتي تشمل الذكريات التي نعتقد أنها من الماضي، والتوقعات التي نعتقد أنها من المستقبل .لكن بالنسبة لهيوم، العقل ليس سوى هذه المجموعة الحالية من الإدراكات .فما وراء هذه التجربة الحالية، لا نملك أي معرفة، لا معرفة بوقائع تتجاوز التجربة الحالية، هذه المجموعة من الإدراكات.

أكد لوك، بطبيعة الحال، على استمرارية الشخصية، والهوية الشخصية من خلال الذاكرة ومعرفة الماضي، وهو ما يعتقد هيوم أنه غير مثبت .قد يكون صحيحاً، لكننا لا نستطيع إثباته.

لكن ميل، عندما يقول "إمكانية دائمة"، فإنه يشير إلى التعميم التجريبي حول المادة أو العقل باعتبارهما فرضيتين .فإذا كانت هناك إمكانية دائمة للإحساس، وإذا كانت هناك إمكانية دائمة للتأمل، فإن الأمر يتجاوز مجرد مجموعة الإدراكات الحالية .إنها استمرارية شخصية، أو على الأقل استمرارية الوعي.

إذن، هو يرفض الخوض في الميتافيزيقا .يمكنك، مثلاً، استكشاف العلاقة بين هذا وبين جان بول سارتر .لا وجود للأنا المتعالية.

كل إدراك جديد أكتسبه يُعيد تشكيل ذاتي .أترى ؟ كأنه يقول إن الذات ببساطة هي إمكانية دائمة لتأملات وتجارب جديدة بالنسبة لي .لذا، فإن ما لدينا هو تقريبًا نفس النتيجة التي توصل إليها سارتر في الفكر القاري .في القرن العشرين، في الفلسفة الإنجليزية في القرن التاسع عشر

.كما ترى، انحلال الذات .حقاً .انحلال الذات

حسنًا، لهذا السبب تواجه الأخلاق التي طورها ميل، أخلاقه النفعية، مشكلة تُطرح عليها كثيرًا .ينص مبدأ المنفعة، بطبيعة الحال، على أنه ينبغي لنا تعظيم المتعة وتقليل الألم لأكبر عدد ممكن من الناس .إنه يعني .أنه ينبغي عليك معاملة الناس كمجموعة من التجارب المؤلمة والممتعة

لكن ماذا يمكنك أن تفعل إن كنتَ ميل إذا كان الذات مجرد إمكانية دائمة للتجارب؟ كل ما يمكنك فعله أخلاقياً هو أن تنظر إلى الذات بهذه الطريقة وتسعى إلى تعظيم التجارب الإيجابية .لا يوجد في النفعية أساس لاحترام الأشخاص في تقليد كانط .والسبب بسيط، فهو لا يملك تصوراً عن الشخص يتجاوز كونه مجرد .مجموعة من التجارب

.أترى ؟ العدالة .حقوق الإنسان .هذه كلمات نطلقها على أشياء مفيدة معينة تُنتج تجارب إيجابية

لذا، فإننا نُقدّر العدالة لفائدتها، لا لأنها صواب .لا يوجد حقٌّ مُسبق لعدم وجود مفهوم للأشخاص ذوي الحقوق الجوهرية .لهذا السبب اضطر جون ستيوارت ميل إلى تطوير نظرية نفعية للعقاب، حيث كان يُنظر .إلى العقاب سابقًا من منظور القصاص

،بالمناسبة، العقاب الجزائي ليس انتقاماً أو ثأراً .فهذا أمر نفسي .الجزية ببساطة هي محاسبة الشخص .وتحميله المسؤولية، ومحاولة الحفاظ على التوازن في المجتمع فيما لا يخصه

إنها محاولة، بهذا المعنى، لتحقيق توازن اجتماعي .حسنًا، هذا مفهوم لم يكن لدى ميل أي أساس له، ولذا طور نظرية نفعية للعقاب، مستندًا إلى مبادئ جيريمي بنثام في الأخلاق والتشريع، حيث دعا بنثام إلى فرض العقاب بهدف إصلاح الجاني وردعه، دون تحميله المسؤولية الأخلاقية بالمعنى التقليدي .وهكذا، حتى يومنا .هذا، نجد في مجتمعنا نظريتين للعقاب، على الأقل نظريتين

أحدهما نظرية العقاب الجزائي، والآخر نظرية النفعية، وأحيانًا مزيج من الاثنين .وقد صاغ كانط وأكوينس .نظرية العقاب الجزائي، ولكن مع تضمينها غايةً في العقاب .فلكل عقوبة غاية

نعم، هناك هدف إصلاحي، نأمل أن تدرك ذلك .لكن في مجتمعنا، هذان هما الهدفان، ويبدو أن مؤسساتنا العقابية تعمل عمومًا وفقًا لنظرية نفعية للعقاب .قبل بضع سنوات، ظهر في بريطانيا توجهٌ، انطلاقًا من .الأخلاق النفعية، يدعو إلى نظرية علاجية للعقاب

بمعنى آخر، لا تسمّوها عقاباً على الإطلاق، بل سمّوها علاجاً .الفكرة هي أن المجرم مضطرب عاطفياً، وغير متكيف اجتماعياً، لذا فهو بحاجة إلى نوع من العلاج النفسي .وقد أثار هذا الأمر جدلاً واسعاً لأنه بدا وكأنه .يقلل من المسؤولية الفردية أكثر

ربما تعلم أن سي إس لويس قد كتب مقالاً حول هذا الموضوع في مجموعة "الله في قفص الاتهام"، بعنوان النظرية الإنسانية للعقاب"، لأن هذا المصطلح كان يُطلق على النظرية الإنسانية، وحجته هي أن هذه" النظرية تُجرّد الإنسان من إنسانيته .فهي لا تُعامل الفرد كشخص ارتكب فعلاً، بل كترس في آلة بيئية لا خيار .له .لذا، تبرز المسألة الفلسفية المتعلقة بالحرية والحتمية بشكل حاد في هذا السياق

حسناً، يتناول ميل مسألة الحرية والحتمية، والضرورة .وباعتباره مناهضاً للميتافيزيقا، عليه أن يرفض الحتمية، التي يسميها أحياناً في عصرنا هذا الحتمية المطلقة .أي أن هناك أسباباً كافية لكل قرار أو فعل بشري .بحيث لا يمكن أن يحدث أي قرار أو فعل آخر

الحتمية .الأسباب السابقة ضرورية وكافية في آن واحد .هذه نظرة للسببية، وهي نظرة ظاهراتية لم يستطع .إيقافها

هذا يعني ضمناً أننا نعرف ما أسماه هيوم بالروابط الضرورية، وهو ما اتفق معه على أننا لا نعرفها .إذن، ما .لدينا هو رفضٌ للحتمية .من جهة أخرى، هو غير راضٍ عن التحررية، التي تُعرف اليوم عادةً باللا حتمية

الرأي القائل بأن الخيارات البشرية، والإرادة البشرية، حرة ويمكنها أن تختار غير ما تفعله .هو لا يحب هذا .الرأي .وهو لا يحبه بسبب كثرة حروف العطف

.مصطلح هيوم، الذي يُشير إلى الترابطات الثابتة التي نلاحظها بين الدافع والفعل، بما في ذلك الإرادة الفاعلة بمعنى آخر، توجد عوامل نفسية سابقة ضرورية لأداء أي فعل .لذا، يبدو أن هناك ترابطًا ثابتًا بين تلك .العوامل السابقة والفعل

.لا يمكننا القول إنها تستلزم ذلك .هذه نظرية ميتافيزيقية .لا نعلم ذلك

،إذن، ما يتبناه هو نوع من التوافقية، كما يُطلق عليها أحيانًا، أو الحتمية المرنة .إنه يريد أن يؤكد أننا، نعم .نتخذ قرارات .نحن نختار

بهذا المعنى، نعم للإرادة، أي الاختيار غير المقيد بأسباب خارجية .لكنه ينكر أن هذه الخيارات مقيدة بأسباب داخلية، بل ينكر أنها ليست ناتجة عنها .وهذا، بالطبع، هذا الرأي، هذا الحتمية المرنة، يصب .بوضوح في أخلاقياته النفعية وما إلى ذلك

لأنه إذا كان الأمر كذلك، فنحن نستجيب لعوامل سببية، والتي، وفقًا لفرضياتنا العامة، ستؤدي إلى اللذة أو الألم، فإن تلك العوامل التي نستجيب لها عند اتخاذ القرارات ستؤثر تبعًا لذلك، وبالتالي فإن النهج النفعي هو .النتيجة .حسنًا .إن أخلاقياته النفعية تتناول ذلك بشكل وافٍ

يطور نظريةً في المعتقدات تشبه إلى حد كبير نظرية الحرية، مفادها أن المعتقدات لا تُختار بحرية بقدر ما .تُنتج نفسياً .وتعود جذور هذه النظرية أيضاً إلى هيوم

أتذكرون سيكولوجية هيوم للاعتقاد؟ فالاقترانات الثابتة تُعوّد العقل على توقع أشياء معينة، أو على الاعتقاد ،بوجود صلة ضرورية .لذا، فإن لديه نوعًا مشابهًا من سيكولوجية الاعتقاد لتلك التي لدى ديفيد هيل .حسنًا هذه هي الصورة في كتابات ميل، ويمكنكم أن تروا، كما آمل، بوضوح تام، المنهج الاستنباطي الافتراضي الممتد إلى العلوم الإنسانية، نعم، في الحديث عن العقل، وفي الحديث عن الحرية والضرورة، وفي الحديث .عن الأخلاق

أترين ؟ أجل؟ أنتِ بحاجة إلى فرضياتكِ العامة كمقدمات إذا كنتِ ستتنبأين بنتائج اللذة والألم لفعلٍ معين ،وتتخذين قراراتكِ النفعية .لذا فإن امتداد ذلك إلى العلوم الإنسانية واضحٌ تمامًا ، وكذلك الأمر بالنسبة لـ .حسنًا، ميل؟ لا أفهم تمامًا يا إستر .نعم

حسنًا .لا تخلط بين استخدامه لكلمة "إمكانية "واستخدام أرسطو لها، حيث يكون الممكن في طور التحول إلى واقع .أترى ؟ كل ما يقصده بإمكانية الإحساس الدائمة هو أنه عندما نتحدث عن كرسي، أو مكتب، أو قلم حبر، أو جسم الإنسان، فإننا نعني أننا نعتقد أن هذه الأشياء مرئية وملموسة.

أترى ؟ لاحظ النهاية :مرئي، ملموس، مسموع، قابل للمس .أترى ؟ أي أنه إذا وُجدت أجسام مادية، فما دامت موجودة، تبقى إمكانية التجارب الحسية قائمة .هذا كل شيء.

الآن، سواءٌ أكنتَ ستختبر تجارب حسية من هذا النوع ، وسواءٌ أكنتُ سأرى إستير مرة أخرى، فهذا أمرٌ غير مؤكد .لكن القول بأن إستير حقيقية، وأنها حية، ولها وجود جسدي، لا يعني أكثر من كونها كائناً مرئياً .أما المادة، بمعنى شاغل الفضاء النيوتني، فهذا أمرٌ آخر.

هذا شيء لا نستطيع فعله .والآن، بالمثل بالنسبة للعقل .عندما أتحدث عن عقلك، وعندما تتحدث أنت عن عقلك، فأنت في الواقع تقول إن امتلاك عقل يعني أن لديك جميع أنواع حالات الوعي التي يمكنك التأمل فيها.

أما مسألة فعل ذلك من عدمه فتعتمد على ما إذا كنت ستبقى مستيقظاً لفترة كافية .هذا أمرٌ مشروط .لكن امتلاك العقل يعني التفكير والتأمل.

ماذا قال ديكارت عن "الشيء المفكر"؟ الآن، ما يفعله ميل هو التخلي عن هذا المفهوم والاكتفاء بالتفكير. أي أنه يتجنب الفرضية الميتافيزيقية، ويتمسك بالفرضية التجريبية .قد يبدو هذا غريبًا بعض الشيء، ولكن إذا كنت تحاول الحديث عن البشر بمصطلحات تجريبية بحتة، فكيف يمكنك فعل ذلك بطريقة أخرى؟ حسنًا، الطريقة الوحيدة للحديث عن البشر هي من خلال البيانات الحسية المادية والبيانات التأملية.

تُروى قصة الجسد من خلال بيانات الحواس الجسدية، بينما تُروى قصة العقل الداخلية من خلال بيانات التأمل .هذه هي كل المعلومات التجريبية المتوفرة لدينا عن البشر .هل هذا واضح بما فيه الكفاية؟ حسنًا.

اسمحوا لي أن أضيف تعليقاً أو اثنين عن إرنست ماخ .توفي عام 1916، وهو فيزيائي نمساوي، وتكمن أهميته في أمرين :أولهما أسلوبه المثير للجدل، كما يُطلق عليه عادةً.

ألّف كتابًا بعنوان "تحليل الأحاسيس"، ذكر فيه أنه يمكننا تحليل كل موضوع من مواضيع التجربة إلى الصفات الحسية القابلة للملاحظة .لذا، فهو يريد أن يفعل ما فعله ميهل، أي وصف الظواهر، أي موضوعات التجربة، باستخدام البيانات الحسية فقط .وبهذا المعنى، فإن العالم، عالمنا، عالمنا العلمي، لا يتكون إلا من الأحاسيس، أي الصفات الحسية.

لا تُقبل في العلم أيّة ادعاءات ميتافيزيقية غير تجريبية .أما الأمر الثاني الذي يُبرز أهميته فيظهر في كتابه عن علم الميكانيكا، حيث يُصرّ على أن النظرية العلمية ليست سوى طريقة مُختصرة لوصف العلاقات بين البيانات الحسية .الآن، إذا جمعنا هذين الأمرين، فسنجد أن العلم لا يتناول إلا البيانات الحسية.

ثانيًا، النظريات العلمية، بالتالي، ليست سوى نظريات تتعلق بالبيانات الحسية .حسنًا؟ نظريات تتعلق بالبيانات الحسية .العلاقات ليست مُعطاة؛ إنها علاقات بين البيانات الحسية.

نُهيكل البيانات الحسية بطرق معينة، بحيث تكون الأشياء التي يتحدث عنها العلم أشياء مثالية، أشياء ظاهرية، قمنا بهيكلتها، وليست أشياء كما هي في جوهرها .إذن، هذه النظرة إلى العلم، سواء عند وايز أو ميلز هي ببساطة النظرة التي تُعرف بالنفعية .فالنظريات العلمية ليست سوى أدوات لإنجاز أمور ذات طبيعة عملية.

بدلاً من مجرد معلومات جزئية عن أي نوع من أنواع الواقع في حد ذاته .هذه هي النظرة الكلاسيكية المناهضة للواقعية في العلم .حسنًا، هذه إذن هي السمات الثلاث للتجريبية في القرن التاسع عشر.

ضعوا هذه الأمور في اعتباركم، وسنعود إليها يوم الاثنين عندما نتناول أعمال برتراند راسل .حسناً؟ لديكم واجب القراءة لهذا الأسبوع .ولديكم أيضاً واجب القراءة للأسبوع القادم، مع العلم أنني سأضيف بعض المعلومات الإضافية يوم الاثنين.

تذكروا ما قلته، أنه يوم الأربعاء، سيكون لدينا ضيف سيتحدث إلى الصف .لذا، نراكم حينها.